أدب الرحلة ودوره في التواصل بين الحضارات استقراء التاريخ واستنطاق المعالم الثقافية

د. حلوي فتيحة

مقدمة:

عرف الانسان الرحلة والتنقل بفطرته التي جبل عليها منذ بدء الخليقة، اي منذ أن هبط آدم وحواء إلى الأرض،فظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة لكلّ عصر، وقد أدّى الرّحالة العرب مهمة سامية للأجيال القادمة، لذا تعدّ الرحلة من أهم العوامل التي ساهمت في النهضة العربية الحديثة، فشهد أدب الرحلة خلال القرن التاسع عشر رواجا في المجتمع العربي، لكنّه رغم هذا لم يحظ بالقدر الكافي من الاهتمام بل أهمل بعد ذلك، فأصبحت المصادر التي تحمل هذا الأدب مجرد تكديس على رفوف المكاتب، نظرا لتوجه الدارسين نحو العلوم والفنون المعاصرة، فقلمّا يتجه الدارسون نحوه، ومن أجل ذلك ارتأيت انجاز هذا الموضوع، وتسليط الضوء على هذا النوع من الأدب للتعريف والتعرف عليه، وركزت الدراسة على أبرز طلائع التنويريين وأحد بناء النهضة الثقافية العربية الحديثة خلال القرن التاسع عشر ألا وهر " رفاعة الطهطاوي "، كما حاولت في هذه الدراسة أن أبين علاقة أدب الرحلة بغيره من العلوم خاصة الجغرافيا والتاريخ والفلك بالإضافة إلى تبيان أهمية الرحلة ودورها الكبير في التواصل بين الحضارات وانطلاقا ممّا سبق كانت الإشكالية كالآتي: كيف ساهم أدب الرحلة في تطوير أدبنا العربي ؟ وبما تميّز ؟ وماهي المراحل التي مرّبها؟ وغيرها من الأسئلة والإشكاليات التي تبادرت إلى أذهاننا، وللإجابة عن كل هذا اتبعنا المنهج التاريخي والوصفي التحليلي وذلك نظرا لملائمتهم لهذه الدراسة.

أدّى الرّحالة العرب وغيرهم مهمّة سامية للأجيال القادمة، إذ أسهمت كتاباتهم في نقل كثير من الصّور الجميلة والمشاهد المميّزة لكثير من البلدان وطبيعتها الجغرافية وظروفها المعيشة ١ وسلّطوا الضوء على تاريخ هذه البلدان وأفكار سكانها وعاداتهم وتقاليدهم قد تختلف وقد تتفق عن عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرّحالة فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى واثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للأخذ من معارفها وعلومها.

الرحلة العربية: وقفة مع النشأة والتعريف:

إنّ الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا الحالي ٢، فقد مارس العرب الرحلة منذ فترة الجاهلية وارتبطت في غالب الأحيان عندهم بالتجارة وبمجيء الإسلام زادت الغاية والعناية بهذا الفن، فلولا الرحلة لما سمعنا عن البيروني أو المسعودي أوابن خلدون، ولولاها لما استمتعنا بكتابات ابن بطوطة وأسامة ابن منقذ وياقوت الحموي والبغذاذي وابن جبير، بل لولاها ما ظهر في سماء الأمة الإسلامية علماء كبار في كافة مجالات الأدب والعلم والفلسفة ٣

فالرحال إذن يصف رحلة أو رحلات واقعية، وشروط الواقعية هذا أهم ما يميز أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية.

إذن وانطلاقا مما تقدم يمكننا ان نقول أنّ أدب الرحلة من الفنون الأدبيّة النثرية التي عرفت ازدهار ا في أدبنا العربي منذ القرون الأولى، حيث وصف فيه الرّحالة ما يرون ومن يرون وجعلوا كتبهم تأخذ طابعا فنيّا، أدبيّا، تاريخيّا وجغرا فيّا، حتى أصبحت أشبه بالموسوعة الثقافية، ويهتمّون في كتابة رحلاتهم بأسلوب التّشويق.

كما عرفها حسني محمود حسين بقوله:" الرحلة في جوهرها حركة وهذه الحركة ذات هدف وإلا كانت سفها قد يتحقق وقد لايتحقق في الحالتين كلتيهما، اكتساب خبرات علمية وفكرية ناجمة عن المخالطة،وبذلك يتم التقابل بين الرحلة في اللغة والاصطلاح حيث يجمعهما أنّهما

حركة "٤.

فأدب الرحلة يرفع التهمة التي ترى أنّ الأدب العربي لم يعالج فن القصة كما يعتبر تدوينها وثيقة هامّة في عالم الرحلة وعملا مستنيرا ينمّ عن فطنة أوتيها الرحال، إمّا علمية أو نظرية، ولعلّه ليس من قبيل المصادفة أنّ الرحلة المدونة لاتعرف الازدهار إلا في ظل الازدهار الحضاري لأمّة من الأمم، فهذه الأمّة يشعر أفرادها بالفخر لانتمائهم إليها..... ممّا يحفزهم على القيام برحلات تهدف إلى التعرف على من وما يجاورهم، ومن ثمّ ينقلون هذه المعرفة في صورة كتاب رحلة هدفه إعلام وإمتاع ذويهم.٥

القيمة الأدبية والعلمية للرحلات:

إذا قرأنا مسيرة تاريخ العالم الإسلامي نجد أنّ الأندلسيين والمغاربة هم الأكثر تفاعلا وتنقلا من سائر العرب، وإن كانت البدايات الأولى مشرقية نظرا لدواعي التنقل من أجل الكلاء والماء أو هروبا من الغزو، وكانت رحلات المغاربة باتجاه البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وطلب العلم رغم المسافات وخطورة المسالك برّا وبحرا وخير دليل على ذلك، تلكم القصائد التي حظيت بهذه الرحلات ذات القيمة الأدبية والتي تنم عن عصر مزدهر حضاريا وثقافيا، وممّا زاد من قيمتها هو ذلك الفضاء الرحب الذي دوّنت فيه، بالإضافة إلى انعدام الحدود السياسية بين مختلف أقطار العالم الإسلامي والمغرب كلّه قطرا واحدا تربط بين مدنه وسائل ومواصلات كان لها الأثر البالغ في طبع الإطار الثقافي بميسم ديني وأخلاقي، حيث كانت عاملا لتنشيط الحركة الأدبية ورصد الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب وتصوير حضارتهم وطرق عيشهم حتى أيّام الفتن والحروب (٦).

إنّ الرحلة تترجم الآثار العمرانية والعادات، وتعدّ أكثر المدارس تثقيفا للإنسان ٧ وهي كأدب يصادق على معطيات ينقلها الرّحال في انصهار تام وبحث دائم عن بناء نص يستجيب لنسيج جمالي يحتوي على تماسك فنّي يتجلّى في كونها حلم يتحقق في بنيات النص بما فيها جسور ألعجائبي والواقعي، وفي مجال التغيير الأدبي وتنويع الثقافة الشخصية دون الاقتصار على مجال واحد ن حيث أنّ الرّحالة يجد نفسه في معظم الأحيان بمناسبة أو غي مناسبة مجبرا على الخوض في مسائل مختلفة خاصة فيما يتعلق بأمور الدّين والفقه والعلم والأدب على العموم ويدفعه كلّ ذلك إلى البحث والتحقيق٨.

إنّ الرحلة لها من الفوائد الجليلة ما تجعلها حاضرة إلى جانب الأشكال الإبداعية الأخرى ذات قيمة تعليمية والتي تبرز حالة التمكن من الجوانب العلمية على اختلاف أصنافها، وخير دليل على هذا رحلة الإمام الشافعي إلى العراق، ونشر العلم في مختلف الربوع ذلك أنّه قد تكون رحلة العالم والأديب من أسباب ظهور علمه وأدبه وانتشارهما، والفضل في نماء العلوم وذلك من خلال المصنفات التي تضاف كلها إلى التراث العربي والجغرافي والتاريخي لما تحتويه من مادة علمية قيمة كانت نتاج نظرة ومعاينة واستقصاء مما ساعد على رسوخ هذه المادّة بفضل المناهج التي اعتمدها أصحابها كالمنهج الوصفي الجغرافي عند الإدريسي فكم من كتاب هو وليد رحلة ؟. كما أنّها كذلك قد حفظت جوانبا مهمّة من التاريخ إذ أودعت تلك الكتب الكثيرة ممّا شاهده مؤلفيها من أحوال الدول ووقائعهما وأسهمت في توطيد العلاقات بين الشعوب.٩

من خلال ما تقدم يمكننا القول أنّ الرحلة تزخر بمختلف المعارف مشكلة بذلك معينا لاينضب أساسه الواقع كما هو،وليس كما يجب أن يكون كما أنّ مضامين هذه الرحلات وشكلها وأسلوب كتابتها ولغتها قد لعبت دورا بارزا في صياغتها وقولبة هذه المضامين خاصة في الحديث عن الأساطير والخرافات وتحليتها بمختلف ألوان التعبير كالسجع وحتى اللفظ والارتقاء بالوصف بالاعتماد على عنصر التشويق في الحكي والقص.

علاقة أدب الرحلة بالعلوم الأخرى:

تنضوي الرحلة عادة تحت لواء الأدب الجغرافي إن لم يكن هذا الأخير مهادها الطبيعي، مادام هذا الأخير تتداخل فيه علوم الفلك وأدب المسالك والممالك فضلا عن معاجم البلدان ومصادر الحضارة وخرائط الحواضر والمدر، وقد يعزى وضع هذا المصطلح "الأدب الجغرافي " إلى المستشرق الروسي "كراتشوفسكي" الخبير بتاريخ الأدب العربي قديمه وحديثه وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، فقد وضع كتابا ضخما عنوانه نقل إلى العربية بعد وفاته بست سنوات هو كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" ١٠.

وإذا أردنا أن نعرف العلاقة بين

الرحلة والأدب الجغرافي نجد أنّ الأدب الجغرافي حديث عن المكان في حين يحاول الرحالة يتحول في أدب الرحلة إلى دال ومدلول،وذلك أنّ خبر الرحالة وملمحهم عناصر المكان، وبالتالي فالواصف ليس منفصلا عن الموصوف الذي يظل في كثير من الأحيان، مادة خام كما الشأن في الأدب الجغرافي،وفي كلّ الأحوال،فقد كان الأدب الجغرافي يمزج أيضا بين الغاية العلمية من اكتشاف لمظاهر الكون والإنسان،وبين الغاية الأدبية المجسدة في مظاهر المتخيل من حكايات وروايات وغيرها، هذه العلاقة بين الأدب والجغرافيا هي العلاقة ذاتها بين المتخيل والواقع، بين الرحلة أوالخريطة أوالتضاريس المرسومة سلفا والمتداولة بين الكشافين والمغامرين ثمّ الرحالة أخيرا.

فالرحلة بهذا المعنى تعيد رسم جغرافية المكان، من خلال الرسوم الجغرافية ورسوم هذه الأخيرة، على اختلاف دلالته يظلّ عالقا بمتن الرحلة أو جسدها. بالإضافة الى أنّ الرحلة تتداخل فيها مجموعة من العلوم والمعارف إذ تحتوي على مادة وفيرة ممّا يهمّ المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير.

وبهذا يمكننا القوا إنّ أدب الرحلة يحمل منابع ثرّة لعلوم مختلفة، فهي سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور.

لعلّ أبرز دور قامت به الرحلة في العالم العربي، هو الخدمة الكبرى التي قدمتها لعلم الجغرافيا، فقد كان الرحالة في وصفه للمسالك والممالك معينا للجغرافي، لأنّه يكتب بقلم اتصل بالجغرافيا والطبيعة اتصالا مباشرا ١١

فأدب الرحلة فضلا عن متعتها الفنية في سرد مغامرات الرحالة وعجائب مختلف الأمم وغرائبها،فهي مبحث ثري يتوفر على فائدة لاتتكر في نقل صور ثقافة الآخر التاريخية والجغرافية والاجتماعية.

أمّا القيمة الأدبية لأدب الرحلة فتتجلى فيما تعرض فيه مواردها من أساليب ترتفع بها الى عالم الأدب وترقى بها الى مستوى الخيال الفني، بالرغم ما يتسم به هذا النوع من الأدب من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي الى الحوار الى الوصف وغيره زيادة عن ذلك السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية ١٢

ولا نغفل في هذا الطرح عن الفوائد التي ترجع على الرحالة المؤلف ذاته من اكتساب للتجربة، والدربة في مجال التأليف، والتنوع الأسلوبي، وفي مجال التعبير الادبي، وكذلك تنويع للثقافة الشخصية، وعدم تركيز على مجال واحد أواختصاص.إذ تجرّه الكثير من المناسبات خلال تأليف الرحلة إلى الخوض في مسائل مختلفة علمية وأدبية شتى تدفعه الى البحث والتحقيق والتأكد من صحة أقواله وسلامة أفكاره ومناهجه وتوثيق الصلة بين الاشكال الأدبية تهدف جميعها إلى سرد التجربة الذاتية وتعميق المعرفة بالعالم الآخر ١٣

أما علاقة أدب الرحلة من الناحية التعليمية التي يختزلها، فهي كتب تثقف القارئ وتثري فكره ومعلوماته عن منطقة ما أومجتمع ما،وذلك حين تصور ملامح حضارة المنطقة في عصر محدد حضارة تكون مصدر الثقافة عنده،وبالرغم من وسائل البحث والتدوين الحديثة في قراءة وكتابة التاريخ الاجتماعي لبلد أو لمرحلة تاريخية والتي جعلتنا على معرفة أوسع وأدق بهذا البلد أو تلك المرحلة من خلال اعتماد السجلات المدنية وأحكام القضاء ودوائر العقارات والمدونات الأخرى إلا أنّ هذه الوسائل غير كافية فقد يحصل تعسف أيضا في كتاباتها وتحليلها وقراءتها والسبب في ذلك غياب الشاهد الإنساني ذلك الإنسان الذي عاش تلك المرحلة مرحلة بمرحلة وعان منها واستلذها وليس هذا المصدر الذي يتمتع بمثل هذا الشاهد إلا كتب الرحلات التي تركها لنا الأقدمون من أمراء وسياسيين ورجال دين وتجار ١٤

وفي هذا الصدد يذهب "شوقي ضيف " إلى أنّ الرحلات هي من أهم فنون الأدب العربي لسبب بسيط هو

أنّها خير ردّ على التهمة التي طاما اتهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن القصصي، ومن غير شيء من يتهمونه لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص زنوج إفريقيا وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وعبدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حينا ويرتفع بنا إلى العالم الخيالي حينا آخر ١٥.

دور وأهمية رحالة العصر الحديث في النهضة العربية : التأثير والتأثر بين الحضارات:

ليس للنهضة العربية الحديثة حدودا واضحة مثفق عليها، بل هي تيار متصل بعيد الجذور كثير الروافد يختلف اتساعا وتأثيرا وأهمية في البلدان التي ورثت حضارة العرب وانتظمتها لغة الضاد وشكلت العالم العربي الحديث، والنهضة الأدبية مرتبطة بالنهضة الاجتماعية

والثقافية وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبة وبعيدة، فالنهضة الأدبية وجه من وجوه الحضارة العربية وعنصرا أساسي من عناصرها، تفاعلت معها وكانت رافدا من روافدها المتميزة ١٦.

ولعلّ أبرز هذه الرحلات رحلة "رفاعة رافع الطهطاوي" الجسر الذي عبرت عليه الأمة العربية من أجل الوصول الى الحضارة الجديدة الغربية،فرحلته الى فرنسا ضمن بعثة علمية رسمية تعتبر أهم الآثار الأدبية والفكرية التي فتحت أبواب الحضارة الغربية أمام الذهنية العربية وأثرت على مسار الفكر العربي،إضافة الى البعثات العلمية التي ساعدت على نقل العلوم والانفتاح على الغرب الى جانب الرحلات.

وممّا ساعد أيضا في الاطلاع على الثقافة الغربية، الترجمة من خلال ترجمة مختلف العلوم والآداب الغربية الى اللغة العربية، أمّا العامل الثالث فهو نمو الاتصال الذي تدخل ضمنه الهجرة، وكذلك الصحافة كعامل أساسي في البعث ثمرة من ثمار المطبعة بل ومن نتائج الحملة الفرنسية لأنّ نابليون أنشأ ثلاث جرائد، ويبدو أنّ عامل الرحلات كان أكثر فعالية في ظهورها وانتشارها ١٧. ومما ساعد أيضا على الاتصال المكتبات، أمّا التعليم فكان له دور فعال في التوعية والتكوين. من أهم الرحلات التي تناولت الحديث عن أثر الحضارة الغربية في نهضة العرب نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أحمد فارس الشدياق ورحلته المسماة:" كشف المخبأ عن فنون فرنسا "، وخير الدين تونسي في رحلته المعروفة:" أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ورحلة جمال الدين الأفغاني بالإضافة إلى رافع رفاعة الطهطاوي من خلال رحلته المعروفة والشهيرة: " تلخيص الإبريز في تلخيص باريز".

قراءة في كتاب تخليص الابريز في تلخيص باريز وأثره على المجتمع العربي:

××× حركة الترجمة والتعريب والاصلاح:

إنّ بداية التفكير بأهمية العلم والتفكير العلمي في العصر الحديث لم يكن نتاجا أو استمرارا لتقاليد الفكر العلمي العربي، بل كانت ثمرة التحدي الذي طرحه والتوسع الاستعماري الغربي من خلال حملة نابليون على مصر، فقد وضع العرب أمام مرآة عصرهم فاكتشفوا درجة الفوات فكان لابدّ من الطموح من الطموح والتطلع لامتلاك سرّ تقدم وتفوق أوروبا الذي هزم تأخرهم. فكان لابدّ من الاحتكاك بالغرب والاقتباس من أفكاره ونظمه وعلومه ومبادئه التي أثرت في المجتمع العربي على أنّ لهذا التأثير وجوها أبرزها اثنان: تغيير الإنسان العربي من جرّاء تلقيه هذه الحضارة الجديدة، ورده على ماتلقى،ثمّ تغيير مظاهر الحياة والمجتمع ١٨. وكان من الطبيعي أن يتأثر بعض رواد الفكر العربي بالثقافة الغربية، فمنهم من حمل لواءها حتى آخر لحظة في حياته مثل رفاعة رافع الطهطاوي١٩. الذي كان واحدا من ألمع العقول العربية التي اتصلت بالفكر التحرري الغربي وأعمقها فلقد استطاعت أفكار التنوير الفرنسي أن تترك أثرا لا يمحى من ذهنه ومن خلاله على المصريين.

لقد حظي الطهطاوي عناية خاصة من قبل "محمد علي"، ورغبته الشديدة في التطوير والنهوض ببلده ن وهذا ولم يندفع –محمد علي – في حركته الإصلاحية نحو الغرب اندفاعا كليا، بل حاول أن يوائم بين حاجات مصر وتراثها الشرقي وما يريد أن يستورده من إصلاحات ونظم وعلوم غربية، لقد حاول أن ينقل الغرب إلى مصر ليحقق مثله العليا في الإصلاح، ولكنّه لم يحاول البتة أن ينقل مصر إلى الغرب بل احتفظ بروحها وتقاليدها ٢٠. فقد طلب من أعضاء البعثات بعد عودتهم إلى وطنهم أن يترجموا كتب العلوم التي درسوها في أوروبا وأن يكونوا همزة وصل بين الثقافة العربية والاروبية فقد اقترح "رفاعة رافع الطهطاوي إنشاء مدرسة الألسن لتكون ملتقى لثقافة الشرق بالغرب، ويمكن عن طريقها إعداد مترجمين للمصالح العامة المختلفة ونقل التراث العلمي الغربي إلى مصر، وقد كانت أبرز تمثيل للتعريب حيث أشرف عليها من يتقنون العربية والفرنسية ووضع في منهجها دراسة الفرنسية والانجليزية والتركية والفارسية والايطالية فأنشئت في أوائل عام ١٨٣٥ باسم مدرسة الترجمة ثمّ غير اسمها فأصبح مدرسة الألسن.

يبدو أنّه لا مفر من التأكيد على أنّ الترجمة عصب الحياة الحديثة وآداه اتصال دولي وحضاري، وأنّنا كعرب ننتمي إلى أمّة مختلفة هي أشد ما تكون بحاجة إلى عمليات ترجميه وتعريبية واسعة وعميقة لكثير من العلوم التي قد لا يتوفر منها إلاّ القليل باللغة العربية، لذلك يؤكد أحد الباحثين على أنّ الغرب

جزء من الإنسانية وحضارة العصر هي حضارته ولا بأس أن نتأثر به ونأخذ منه ونتعرف إليه.... علينا أن نتعلم علمه لنحاربه ومهما أوغلنا فيه علينا ألا نأخذ منه إلاّ ما يفيدنا ولا يتعارض مع وجودنا وشخصيتنا فمن خلال ما سبق يتبين أنّ مشروع النهضة والإصلاح بالنسبة للرحالة رفاعة رافع الطهطاوي تتمثل في عملية الإبداع وليس في عملية الإتباع وفي عملية التجديد وليس في عملية التقليد، وبهذا الاتجاه الإبداعي للاستفادة من كلّ أسباب الحضارة الأوربية والفرنسية منها بشكل كبير وخاص

فالرحلة كانت بمثابة المحطة الأولى في قيام الإصلاحات حتى وإن لم تكن حققت حلم المصلحين، لكن تحديث البلاد على مستوى النظم الإدارية وإقرار الدستور والقوانين وهيكلة الاقتصاد والنظام التربوي والصناعة والجيش ساعد العالم الإسلامي والعربي الولوج ولو بصورة غير كاملة إلى العالم الحديث.

الرحلة الأندلسية نحو المشرق مقياس الاستعاب الحضاري والأصالة المعرفية ببلاد الأندلس:

على الرغم من وقوع بلاد الأندلس في أقصى الغرب الإسلامي، إلاّ أنّ الأندلسيين كانوا يتجشمون كلّ وعر في البر والبحر قصد زيارة مهد الدّين، والحق أنّ الدّارس المتأمل في تاريخ الأندلس العربية الإسلامية بلغت نظرته بشدّة هذه الظاهرة المميزة لأهل الأندلس طيلة الوجود الإسلامي بها،وإذا ماحاولنا رصد أهم الدوافع والبواعث التي حثت الأندلسيين على سلوك هذا النهج أمكننا القول أنّها تتجلى فيما يلي:

١/ وقوع الأندلس في أقصى الغرب الإسلامي شكّل باعثا قويا للأندلسيين قصد الترحل نحو المشرق وحتى يؤكّدوا أنّهم عربا مشارقه رغم تعدد عناصر المجتمع الأندلسي كما هو معهود، وان نأت بهم الديار منأى بعيدا، ذلك أنّ الغربة تدفع الإنسان إلى محاولة تحدي عقبات الزمان والمكان قصد التأكيد على الانتماء نحو المهد الأوّل له.٢١.

٢/ أمّا العامل الثاني الذي شجع الأندلسيين على كثرة الترحال نحو المشرق،هو انعدام آنذاك ما يصطلح على تسميته بالحدود السياسية في عصرنا هذا، بالإضافة إلى وجود روح المنافسة بين الرحالين للحصول على إجازات العلماء والشعراء، ولعلّ هذا ماقصده الدكتور:" عبد الحليم عريس " حين قال:" وقد ساعد على إنجاح هذه الظاهرة أنّ حركة الانتقال كانت مباحة بين العواصم الإسلامية على هيئة بحوث علمية وتسابق في الحصول على إجازات العلماء والشعراء وفي اقتناء الكتب الكبيرة والنادرة."٢٢.

٣/ أمّا الباعث الآخر فيتجلّى في اعتقاد الأندلسيين بأنّهم لم يستفيدوا علما ولافكرا من مسيحيي الأندلس أهلها الأصليين، فهم حسب اعتقادهم أهل جهل وجهالة وليسوا أهل علم وحضارة، لذلك نرى الدكتور شوقي ضيف يقول:" ومهما يكن فإنّ عرب الأندلس لم يفيدوا شيئا واضحا في حياتهم العلمية عن طريق الأندلس نفسها، بل جلّ ما أفادوه أتاهم من المشرق."٢٣.

على الرغم من أنّ الدكتور "أحمد مختاري العبادي " حاول أن يتبث العكس إلاّ أنّ واقع التاريخ الأندلسي يؤكد ما أشرنا اليه آنفا، ومن أشهر الأندلسيين الذين نقلوا ما يتعلق بالعلوم الدينية أبو حفص عمر الهوزني (ت٤٦٠ه) الذي رحل الى مصر ومكة وروى في طريقه الترمذي وصحيح البخاري وعنه أخذ أهل الأندلس والمغرب،وعمر وعثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤ه) فقد رحل إلى المشرق وسمع من شيوخه وعلمائه آنذاك وعاد إلى الأندلس وهو علم بروايات القرآن وتفسير معانيه وطرق إعرابه، ومن الأندلسيين الذين التقوا بالإمام مالك رضي الله عنه " أبو بكر محمد بن بشر المعافري " ٢٤.

نماذج من تطور أدب الرحلة بالمغرب العربي " الرحلة الجزائرية أنموذجا".

إذا تطور فن الرحلة في الجزائر في العصر الحديث واهتمت إلى جانب الجغرافي و التاريخي بنقل الانطباعات و المشاعر والتصورات كما نقلت قضايا إيديولوجية وثقافية وحضارية من وجهات نظر الكتاب وتعددت الأغراض أيضا من دينية إلى تعليمية إلى تجوال وسياحة و قد استجدت دواعي أخرى لذلك كحضور الملتقيات والمهرجانات والتظاهرات الثقافية وأداء مهام سياسية أو دبلوماسية. وقد اختلفت طرق تدوين هذه الرحلات فمنها ما استقل بكتب كاملة ومنها ما أخذ حيزا في كتب أخرى ككتب السير أو

المذكرات ومنها ما ظل حبيس الجرائد و المجلات.٢٥

نماذج من الرحلات:

١/ رحلة محمد السعيد بن علي شريف إلى فرنسا: لقد أفاض الرحالة في وصف أخلاق أهل باريس،فوصفهم بالذكاء ودقة الفهم يقول: " فهم مولعون بحب المعرفة في والتدليل على ما يقولون...ولهم محبة في تبديل وتغيير سائر الأمور لاسيما اللباس فإنه غير مقرر عندهم وليس ذلك التغيير كليا وإنما ينتقلون من القلنسوة إلى الشاشية،يلبسون البرنيطة على شكل ثم ينتقلون بعده إلى شكل آخر،سواء في صورتها أو شكلها، ومن عاداتهم المهارة والخفة،فإن صاحب القدر تراه يجري في الأزقة كالصبي، ولهم طيشا وتلون،فينتقل الإنسان من الفرح إلى الحزن وبالعكس و من الجد إلى الهزل وبالعكس إلى أن يرتكب في اليوم جملة من أمور متضادة ".٢٦

٢/ رحلة أحمد رضا حوحو الاتحاد السوفياتي: وقد أطلق على رحلته عنوان "وراء الستار الحديدي"،يقول واصفا الحياة الثقافية لدى السوفيات: "الثقافة في بلاد السوفييت طابع ممتاز صبغت به كل ألوان الحياة هناك فلا مفر للكبير والصغير من الثقافة والتعليم ووسائلها كثيرة متوفرة لكل راغب والإقبال على التعليم عظيم جدا لأنه هو طابع الحياة في تلك البلاد يجده الإنسان أينما حلّ وارتحل في الحدائق، في المسارح،في المكاتب العامة وحتى في المعامل..".

خاتمة:

وفي الأخير ومن خلال ماتقدم نخلص للنتائج التالية:

- الرّحلة هي سرّ وحدة البشر، والجسر الواصل بين مختلف الشعوب والأقوام، فكيف كان لنا أن نتعرّف على حضارة شعب ما لولا تلك الرّحلات التي قام بها مغامرون صناديد شغوفين بحب العلم والمعرفة والاكتشاف تاركين حياتهم في سبيل الغوص في فضاء خلق الله واكتشاف أسراره فبفضلهم - استطاع الإنسان المكوث في بيته والحصول على كلّ ما يرغب به، وأن يرى كل مكان في الأرض أو في السماء أو في أعماق البحار والمحيطات
- الرّحلة حافز كبير لبناء شخصيّة قوية، وهذا من خلال التّجارب القاسية وحرارة المواقف وصعوبة المغامرة التي يمرّ بها الرّحالة.
- كانت الرّحلة بكافة صورها ومشاهدها وأغراضها إحدى الرّكائز الإنسانية في بناء الحضارة العربية الشامخة.
- تضم الرحلة وثائق لا غنى عنها للباحثين في التاريخ الاجتماعي والأدبي وال ديني.
- تحفل الرحلة بالمعلومات عن عصره سياسيا واجتماعيا وعن معاصريه

الهوامـــش:

١ – عبد الرحيم مؤذن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار الأهلية للنشر والتوزيع، د ط. ٢٠٠٦، ص ٣٧

٢ – حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة المعرفة بالكويت،دط،١٩٨٩، ص ١٥.

٣ – فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية، القاهرة، ط١٩٩٥،١،ص٤١.

٤ – حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط١٩٨٣،٢،ص ٢٥

٥ – ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء،القاهرة، ط٢٠٠٩،١،ص٦٠.

٦ – ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة،دار الكتب العلمية، بيروت،ط١٩٩٣،١،ص٣٥٧

٧ – سيد أحمد النساج، منشورات كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة،القاهرة،دط،دت،ص٦٨.

٨ – سميرة أنساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري–دراسة في النشأة والتطور والبنية – دار الهدى،الجزائر،٢٠٠٩،ص٣٩.

٩ – محمد الخضر حسين،الرحلات،تح:علي رضا التونسي،المطبعة التعاونية، دمشق،١٩٧٩،ص١٧

١٠ – يوسف وغليسي،في ظلال النصوص تأملات نقديه في كتابات جزائرية،جسور للنشر والتوزيع،الجزائر،١٩٩٥،٢٠١٢،ص٩٧.

١١ – فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العرب، مرجع سابق،ص ٢٣.

١٢ – حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب،مرجع سابق،ص٩

١٣ – سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري،ص٣٩

١٤ – حافظ محمد باد شاه،الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الوطنية للغات الحديثة،إسلام آباد،٢٠٠٩،ص٣٥–٣٦.

١٥ – شوقي ضيف، الرحلات، ص ٥٧.

١٦ – وليم الخازن، تباشير النهضة الأدبية،دار العلم الملايين،بيروت،ط١٩٩٣،١،ص١١.

١٧ – المرجع نفسه، ص ١٧ , ٢٧

١٨ – نازك سابارياد،الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة،دار النشر،نوفل،مصر،ط١٩٩٢،٢،ص٩.

١٩ – بثينة علي مرزوق،الأدب السياسي والحداثة في الشعر،مركز الإسكندرية للكتاب،الإسكندرية،دط، ٢٠٠٦،ص٣

٢٠ – محمد حسن عبد العزيز،التعريب في القديم والحديث، دار العربي،القاهرة،دط،١٩٩٠، ص١٥٩–١٦٠

٢١ – محمد سعيد الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي،ص٦.

٢٢ – ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص ٣٥.

٢٣ – الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٣١٥.

٢٤ – محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص٥٢

٢٥ – سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ٤٠.

٢٦ – المرجع نفسه، ص٤٥.